المحاضرة الثانية: المجتمع العربي عشية ظهور الاسلام

اعتاد المؤرخون أن يُسَمّوا مرحلة ما قبل الإسلام بـ"الجاهلية" وأنْ يذهبوا إلى أنّ العرب غلبت عليهم البداوة، وأنهم قد تخلّفوا عن ركْب الحضارة التي ظهرت عند غيرهم من الشعوب التي عاصرتهم، فكانوا في جهْل وغفْلة، أمّيون عَبَدة أصنام، ليس لهم تاريخ حافل، ولم تكن لهم أيُّ صلات بالعالم الخارجي آنذاك، وقد فهم الناس أنّ الجاهلية من الجهْل الذي هو ضدّ العلم، وفهمها آخرون أنّها من الجهل بالله ﷻ وبرسوله ﷺ والجهل بشرائع الدين واتباع الوثنية والتعبّد بها، وذهب آخرون إلى أنّها من المُفاخرة بالأنساب، والتّباهي بالأحساب، والكبر والتجبّر، وغير ذلك من الخلال التي كانت أبْرز صفات العصر الجاهلي[1].

وعليه لا تخرج الجاهلية بمفهومها الفعليّ من كوْنها صفات سلبيّة مشترَكة، ظهرت في زمنٍ معيّن فعُرف بها، وهي ليست مرحلة زمنيّة خاصّة بقدْر ما هي وضعٌ اجتماعيّ يتكرّر كلما وُجدت سماتُه وخصائصه، وسيتبيّن ذلك من خلال ما سنعْرضه من سماتٍ للمجتمع العربي قبل الإسلام.

1- القبيلة أساس النظام الاجتماعي عند العرب

كان المجتمع العربي قبيل ظهور الإسلام مجتمعا قبليّا بدائيا، يتلاءم وطبيعة البيئة التي عاش في كنفها، وقد قُسّم العرب إلى وحدات اجتماعية متعدّدة، عُرفت كلّ منها باسم القبيلة، وهي مستقلة لا تعترف بأيّ سلطة خارجية عليها، إنّها تمثّل المجتمع الأكبر لأهل البادية، وينتمي أفراد القبيلة إلى أصْل واحد مشترك، وتربطهم رابطة العصبيّة للأهل والعشيرة، وتجْمعهم رابطة الدّم الواحد، وعلى ذلك النّحْو تعدّ العصبيّة القبليّة مصدر القوّة السياسيّة والعسكريّة التي تربط أفراد القبيلة، والعصبيّة عند العرب نوعان: عصبية الدّم؛ وهي أساس القرابة في البيْت الواحد، وعصبيّة الإنتماء؛ وهي التي تشترك في أبٍ بعيد أو جدٍّ واحد مشترك.

لذلك قسّم علماء الأنساب قبائل العرب إلى مراتب هي: شعْب، ثمّ قبيلة، ثمّ عمارة، ثم بطْن، ثم فخْذ، ثم فصيلة، فالشعب النّسب الأبعد، مثل قحْطان وعدْنان، والقبيلة مثل ربيعة ومُضَر،

[1] جواد علي: المفصل، ص 37 وما بعدها.

والعمارة مثل قريش وكِنانة، والبطْن مثل بني عبد مناف، وبني مخزوم، والفصيلة مثل بني أبي طالب وبني العبّاس، وزاد بعضهم على هذا التقسيم فأدخل بعض الفروع من قبيل العشيرة؛ وهي رهط الرجل أو الجيل وهو بين الفخْذ والفصيلة، وجعل بعض علماء الأنساب "الجذم" أول المراتب قبل الشعب، وزاد آخرون بعد الفصيلة الرّهط ثمّ الأسرة، ثم العِتْرة، ثم الذرّية، ثم البيْت، ثم الحيْ ثمّ الجماع[2].

للقبيلة نظامٌ هرميّ معروف عند العرب يبدأ بشيخ القبيلة وسيّدها ويأتي أعلى الهرم، يختاره مجلس شيوخها من بينهم، ولم يعرف العرب مبدأ الوراثة في الرئاسة، إذ لا يُسَوَّد إلا من توفّرت فيها خصال الكرم، والنجدة، والشجاعة، والحلم، والصبر، والتواضع، والبيان، والحكمة، ونحو ذلك من الخصال الحميدة، ويشترطون فيه أيضا أن يكون من أشرفهم نسَبًا، وأشدّهم عصبيّة، وأكثرهم مالاً، وأكبرهم سنًّا، وأعظمهم نفوذا[3].

ولم يقتصر النظام القبلي على العرب البدو، وإنّما عرفت المجتمعات العربية الحضرية أيضا هذا النّظام، فالحضر ولا سيما في الحجاز؛ وإن استقرّوا وأقاموا غير أنّهم لم يتمكّنوا من ترك النظم الاجتماعية القائمة على مراعاة قواعد النسب، وفقًا للتقسيمات المذكورة التي أوجدتها في الحقيقة مجتمعات البادية انطلاقا من طبيعة الحياة في البادية.

إن نظام القبيلة في المجتمع العربي جعله مشتّتًا مفتّتًا من الناحية السياسية إلى وحدات متعددة، قائمة بذاتها تمثّلها القبائل المختلفة، فشكّلت كلّ قبيلة دُويْلة تنطبق عليها مقوّمات الدولة؛ من شعْب وحكّام، باستثناء الأرض الثابتة التي تحدّد منطقة نفوذها، ولم يكن في ذهْن العربي من مفهوم الدولة غير ذلك المفهوم القبلي[4].

2- طبقات المجتمع

كان المجتمع العربي قبل الإسلام يتألف من ثلاث طبقات:

---

[2] جواد علي: المفصل، ص510.
[3] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، بيروت، ط1، 1430هـ/2009، ص161.
[4] المرجع نفسه ، ص161.

أ/ طبقة الصرحاء الأحرار أبناء القبيلة: ويجمع بينهم الّدم الواحد والنسب العريق والجدّ المشترك، وهم الذين كانوا يمثّلون الطبقة العليا، أصحاب المنزلة الاجتماعية الرفيعة، ولهم من مظاهر الشّرف والرّفعة ما يمكّنهم من استخدام نظام الإجارة، فيُدخلون من أرادوا من الأفراد والقبائل في جِوارهم ويتكفّلون بحمايتهم، ومعظم أصحاب هذه الطبقة من الأثرياء وأهل الأموال، فمنهم السّادة والتّجار، وأصْحاب الإقطاعات الكبيرة في المدن والمناطق الزراعية ومناطق الرّعي، وقد أثّر التغلغل المادّي في المجتمع العربي تأثيرا كبيرا بحيث كرّس مفهوم الطبقية، وظهرت آثارها في الدِّيات، فبينما كانت دِيَة الحرّ الشريف تصل إلى الخمسمائة والألف من الإبل، كانت دِيَة غيره من أتباع الطبقات الأخرى لا تكاد تصل إلى نصف قيمة ما تبلغه دِيَة الحرّ العريق[5].

ب/ الطبقة المتوسّطة: ويمثّلها صغار التّجار وأصحاب الإقطاعات المحدودة، وكانوا يدورون في فلك الأثرياء، ويدخل أيضا في هذه الطبقة الخُلَعاء الذين نبذتْهم قبائلهم لتصرّفاتهم الشائنة، ولخروجهم على تقاليدها الموروثة، وينتمي إلى هذه الطبقة أيضا العُتقاء، لأنهم ارتقوا من الطبقة الدنيا إلى الوُسطى بعد عتْقهم، بينما لا يرتقون إلى الطبقة العليا لأنهم لا ينتمون إلى النسب العربي الحرّ، لذلك كان المعتَق في كثير من الأحيان يُنسب إلى سيّده بعد العتق، فكان يقال مثلا لزيد بن حارثة، زيدٌ مولى رسول الله ﷺ أو عتيقه. كما انتمى إلى هذه الطبقة المستجيرون من غير الخلعاء، ونظام الجوار انتشر عند العرب وظلّ معمولا به في الإسلام، قال تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ}[6].

ج/ الطبقة الدنيا: وتمثّل هذه الطبقة السّواد الأعظم من الفقراء المعدمين والأرقّاء، فكان لكل قبيلة عددٌ كبير من العبيد السود والبيض والمولّدين، فهم القوة المنفذة لرغبات السّادة، في الصحراء، والآلات اللازمة لحركة الحياة، وسدّ حاجات المجتمع في المجالات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة، من معيشةٍ، وزراعة، وتجارة، ورعيٍ، وصناعةٍ، ونحْو ذلك، وكان العبيد يُجْلَبون إمّا عن طريق الأسْر، كحالة سلمان الفارسي رضي الله عنه، أو عن طريق التجارة في أسواق النخّاسة، وكان السُّود منهم يُجْلَبون من افريقيا السوداء إلى شبه الجزيرة العربية، أمّا

---

[5] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، أحوالهم السياسية والدينية وأهم مظاهر حياتهم، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والانسانية،ط1، 1995، مصر ص272.

[6] قرآن كريم: سورة التوبة، آية 6.

البيض فمن الفرس والروم عن طريق العراق والشام، وهذه الطبقة محرومة من كافّة الحقوق الآدمية مع تحمُّلهم لمهام ومسؤوليّات شاقّة، في حياة ملْؤُها المذلّة والهوان –إذا استثنينا بعض الحالات الشاذّة خاصة في العصر الاسلامي كحالة زيد وابنه أسامة وسلمان مع رسول الله ﷺ –.

أمّا الإماء والجواري فكنّ يشتغلْن في البيوت وكنّ يُجْبَرن على الغناء والبغاء، قال تعالى {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[7]، وكان العرب يفضّلون بيْع الأمَة التي تُجيد الرّقص والغناء، وتحْترف البغاء لثمنها الغالي، وقد نهى الرسولﷺ عن ذلك بقوله :"لا تبيعوا المغنّيات ولا تشتروهنّ ولا تعلّموهنّ الغناء، ولا خيْر في التجارة فيهنّ وثمنهنّ حرام، في مثله نزلت: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}[8].

كان من أهمّ آثار الطبقيّة في المجتمع أن اشتدّت الكراهية بين تلك الطبقات، فاختلّ بذلك التوازن الاجتماعي، وكذا التوازن الاقتصادي، حتى اضطرّ بعض العرب إلى الهرب للصّحراء، يتربّصون بقوافل التجارة ويقومون بالفتك والسلْب والنّهب[9]، ولا شكّ أنّ الأثْرياء هم المتسبّبون في ذلك الخلل، وقد قال الله ﷻ في ذلك: {كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَآضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}[10].

3– وضع الأسرة

تشكّل الأسرة العربيّة وحْدةً اجتماعيّة، وهي أساس القبيلة، ومن الأسر التي تشترك بروابط الدّم والنّسب تنشأ العشيرة، ثمّ تنشأ منها القبيلة، وقد كان العرب ينتسبون إلى آبائهم، فالأب هو

---

7 قرآن كريم: سورة النور، آية 33.

8 والحديث رواه الترمذي وهو ضعيف، ولم أجده في صحيح البخاري ولا في صحيح مسلم بل نقله منصور علي ناصف في كتابه التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ، دار الجيل، بيروت، ج2/ ص209-210. والآية من سورة لقمان ، آية 6.

[9] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص276.

[10] قرآن كريم: سورة الفجر، آية، 17-18.

مرجع النّسب وهو دور الطّوطم، ويعدُّ الرّباط المتين الذي يربط بين الأفراد ويجمع شمْلهم، وفي حالة جهْل النّسب للأب، يُنسب الولد إلى الأمّ، كما اعتمد العرب مؤسّسة الزواج فكان بالنسبة لهم النوع الطبيعي الذي يتمشّى مع الحاجات الاجتماعية الأساسية للإنسان والسلوك الفطريّ له، وقد أقرّه الإسلام بعد أن قام بتهذيبه، وأكثر الزواج شيوعا في شبه الجزيرة العربية زواج البعولة؛ أو تعدّد الزوجات الذي وجد قبولا واستحسانا من أبنائها، ورغم انتشاره إلا أنّ كثيرا من العرب اكتفى بزوجة واحدة بسبب ضيق ذات اليد، أو بدافع الرّغبة في ذلك، أو لاشتراط الزوجة الأولى عند العقد عليها[11]، وقد أباح الإسلام الجمع بين أربع زوجات، واشترط في ذلك وجوب العدل بينهن، قال ﷻ: {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ }[12].

وعرف العرب أيضا زيجات أخرى، وقد حرَّمها الإسلام بعد ذلك، كزواج الشّغار الذي يقوم على المبادلة، وزواج الرهط الذي يقوم على مشاركة جمع من الرجال في امرأة واحدة، وكذا وزواج المقت أو الميراث، كأن يتزوج الابن زوجة أبيه خوفا على ذهاب الميراث عن الأسرة، وقال ﷻ فيه:{وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً }[13]، وهناك نكاح الاستبضاع؛ كأنْ تستبضع المرأة رجلا بغرض الحمل ونجابة الولد، ولما جاء الإسلام حرَّم كل الأنواع الشاذّة من الزّيجات في آية جامعة من سورة النساء قال فيها ﷻ :{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً }[14].

يظهر من خلال ما سبق ذكْره أنّ النظام الأبوي كان هو المسيطر على المجتمع العربي، وتسْنده القاعدة العامة المعروفة "الرجال قوّامون على النساء" وقد أقرّها الإسلام فيما بعد حين نزل قوله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ

---

[11] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص277.
[12] قرآن كريم: سورة النساء، آية 3.
[13] قرآن كريم: سورة النساء، آية 22.
[14] قرآن كريم: سورة النساء، آية23.

أَمْوَالِهِمْ}[15]، ومع ذلك لا يمكن إغفال دوْر المرأة في المجتمعات الجاهلية، حيث أدّت الحرّة دورا هامّا في السّلم والحرب، لذلك كانت مفْخرة الرّجل وموضع عزّته، حتّى انتسب بعض الرجال إلى أمّهاتهم، مثل المنذر بن ماء السّماء ملك الحيرة، وماء السماء لقب أمّه "مارية بنت عوف"، وتوكل للمرأة في زمن السّلم أعمال المنزل، والزّراعة، وفي بعض الأحيان تكتسب من أعمال أخرى، كالتجارة، والرّضاع، والغناء، والنسيج، ودبغ الجلود، وغير ذلك، وفي أوقات الحرب يشجّعن أزواجهنّ على القتال بأناشيد حماسيّة، وكنّ يداوين الجرحى ويسقين المقاتلين، ويشتركن أحْيانا في القتال[16]. وإذا كانت المرأة الحرّة بتلك المكانة، ولها قدرها ومنزلتها التي وصلت إلى حدّ الاستجارة بها، فإنّ مكانة غيرها من النسوة كانت في الحضيض، كحالة الإماء والعاهرات اللاتي يتّخذن الأخدان، وكذا القيّنات والراقصات في حوانيت الخمّارين، ومنهنّ راعيات الإبل والغنم، وكلهنّ كنّ في منزلة وضيعة[17].

4- صفات العرب ومناقبهم

رغم عديد السّمات السلبية التي عُرف بها عرب الجاهلية من طبقيّة بغيضة وعصبيّة مقيتة، وانحلال اجتماعي يهدّد أصالة النّسب وصراحته، إلا أنّهم مع كلّ ذلك عُرفوا بمكارم الأخلاق، وأكثر اشتهارهم كان بالكرم الذي كان ردّا فعليّا إيجابيّا عن قساوة الحياة وشظف عيْشها، حيث الطبيعة الصحراوية الجافّة وشدّة الجدب، والكريم عند العرب هو من أعطى فحَرَم نفْسه، والكرم عندهم أحد مظاهر السّيادة، كما اشتهر العرب بالشّجاعة والبأْس وعدم الاكتراث بالموت، إمّا دفاعا عن القبيلة التي ينتسبون إليها، أو دفاعا عن النساء صونًا لهنّ من المهانة وذلّ السّبْي، وتدرّج هذا النّمط السلوكي إلى الإيثار والوفاء، والعفْو عند المقدرة، وإغاثة الملْهوف، والاعتراف بشجاعة الخصْم، وترتبط الشجاعة عند العرب بالفروسيّة، واشتهر العرب أيضا بالعفّة والتّسامي عن النقائص، فعفّة العربيّ هي شرفه، وهي من شروط السّيادة كالكرم والشّجاعة، حتى اعتُبر الرجل المتأثّر بالنّساء جبانٌ ساقطُ الهمّة، وكانوا يقولون :"ليس سيّدا من غلَبتْه شهوتُه"، والخُلُق الأخير الذي امتاز به العربيّ هو خلُق الوفاء بالعهود وكراهية النّكث والغدْر، وقد كان العرب يلحقون العار بناكث العهود، ويشهّرون به في الأسواق، وضربوا المثل بالوفاء بالسَّموْأَل بن

---

[15] قرآن كريم: النساء، آية 34.
[16] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 177.
[17] محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 177

عادياء الذي رفض أن يسلّم الحارث بن أبي شمر الغسّاني دروع امرئ القيس التي أوْدعها عنده أمانة، وتحصّن في قصره بتيماء، فهدّده الحارث بقتل ابنٍ له، فلم يزدْه ذلك إلا إصرارا، وردّ عليه بقوله:" شأنك به فلست أخفر دمّتي، ولا أسلّم مال جاري" عندئذ ضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقال السموأل في ذلك:

وفّيت بذمّة الكنديّ إنّي إذا ما خان أقوامٌ وفيت
وأوْصى عاديا يوما بأن لا تَهدِم يا سمَوْأَل ما بنيْت
بنى لي عاديا حصْنا حصينا وماءً كلَّما شِئْت استقيْتُ[18]

واشتهر العرب بالإجارة وحماية الضّعيف والدفاع عنه، وكانوا يتباهون بكثرة من يلُوذ بهم، ويطلب حمايتهم، وكانت القاعدة عندهم حماية الجار بريئا كان أم آثما حماية كاملة ضدّ الجميع، ممّا أدّى إلى تحمّلهم مسؤوليات جسيمة جرّت عليهم مشاكل عديدة، وإزاء كلّ هذه الخصال الحميدة جاء الإسلام فزادها تشجيعا ومؤازرة، وقد أخْبر الإمام مالك ابن أنس رضي الله عنه أنّه بلغه أنّ النبي ﷺ قال:" إنما بعثت لأتمّم حُسْن الأخلاق"، ورُوي عن أبي هريرة أنّ النبي قال:" إنما بعثت لأتمّم صالح الأخلاق"[19].

5- ديانة العرب قبل الاسلام

ترجع أهمّية دراسة الواقع الديني للعرب قبل الاسلام إلى محاولة فهْم عقليّة الانسان العربيّ باعتباره المتلقّي لرسالة الإسلام، وكذا معْرفة طرق تفكير ومعتقدات القوْم الذين نزل الوحي بينهم، والتعرّف إلى وجهة نظرهم للخالق والكون، ولم يكن ذلك الواقع وليد المنطقة، إنّما تدخّل في تشكّله عوامل كثيرة، منها ما هو داخلي؛ متعلّق بذهنيّة العربي، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والنفسية التي عايشته، ومنها ما هو خارجي يرتبط بتأثيرات المجتمعات المجاورة لبلاد العرب ومدى تأثيرها في معتقد الإنسان العربي.

- **الديانات الوثنية**

---

[18] أبو الفرج للأصفهاني: الأغاني ،ج22/، ص4262 .محمد سهيل طقوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 194

[19] محمد بن سعد بن منيع الزهري(ت230هـ) : الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1421هـ/ 2001م، ج1/ ص163. والحديث صحيح رواه الإمام أحمد في مسنده.

انتشرت في جزيرة العرب عبادة الظواهر الطبيعية المعروفة بالوثنية؛ لتوهّم العرب أنّ وراءها قوى روحيّة كامنة تتحكّم في تسيير حياتهم ومقدّرات أمورهم، ثم اتّخذ العرب لتلك الظواهر أشكالا حجريّة ملموسة، على اختلاف أشكالها تمثّل رمزا للآلهة، وعُرفت بالأصنام، والتي اتّخذوها صورا ورموزا للقوى الخفيّة التي تؤثّر في حياتهم وخصّوها بالعبادة [i].

وتجدر الإشارة إلى أنّ العرب كانوا على دين إبراهيم وإسماعيل، وكان جوهر ديانة العرب هو التوحيد منذ العهود الغابرة، وقد أخْبر القرآن الكريم عن ديانة أقوام بعض العرب في مواضع عدّة، قال سبحانه وتعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ }[ii] وقال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[iii]، إلى أن جاءت ديانة إبراهيم الحنفية، غير أنّ الزمن تكفّل بتغيير وتحريف الديانة الابراهيمية السماوية، ثم إدخال عبادة الأصنام لتكون بديلا عنها، ويرى الإخباريّون أنّ أوّل من حرّف ديانة إبراهيم وأدْخل عبادة الأصنام إلى العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي الذي كانت له السيادة على الكعبة في مكة، بعد أن تغلّبت خزاعة على جرهم، وتولّت أمر بيت الله الحرام وصارت لها السيادة في مكة، وكان عمرو أوّل ملك لخزاعة، وتشير الروايات التاريخية إلى أنّ عمرو بن لحي قدِم بعبادة الأصنام من أرض البلقاء من بلاد الشام التي كان يرتادها في رحلاته التجارية، حيث رجع من الشام في إحدى رحلاته حاملا معه صنما يدعى "هُبل" فنصبه في مكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[iv]، فلما تجرّأ على فعل ذلك نصحه الحارث بن مضاض قائلا:

يا عمرو لا تَفْجُر بمكة إنها بلد حرامُ[v]

وذهب آخرون إلى أنّ عبادة الأصنام انتشرت بفعل تقديس العرب لحجارة الكعبة والحرم، إذ كان عرب الأقاصي يأخذون معهم حجارة الحرم للتبرّك والتمسّح بها، وشيئا فشيئا أصبحوا يطوفون بها كطوافهم على الكعبة، ثمّ صارت أصناما وأوثانا تُعْبد من دون الله، وبقي آخرون على بقايا ديانة إبراهيم يعظّمون البيت ويطوفون به في الحجّ والعمرة، غير أنّهم أحْدثوا في دين الله ما ليس فيه، وأخْلطوا الدين الصّافي بشِركيّات دخيلة ابْتدعوها، فكانت قريش وكِنَانة إذا أهلّت قالت:" لبّيك اللهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك، إلاّ شريكا هو لك تمْلكه وما ملك"، فكانوا يوحّدون الله

بالتّلبية، ثمّ يدخلون معه أصنامهم ويجْعلون ملْكها بيده عزّ وجل، قال تعالى في شأنهم:{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ }[vi].

وقد سمّى أهل الحرم أنفسهم بأهل الحُمُس تمْييزا لهم عن غيرهم من أهل الحلّ، وابْتدعوا على إثْر ذلك التَّمييز أشْياء تعبّدية ليست من الدين في شيء، فكانوا لا يأْكلون السّمن ولا يسْلؤونه، ولا يمخضون اللّبن، ولا يأْكلون الزّبد، ولا يلْبسون الوبر، ولا الشّعر، ولا يستظلّون به ما داموا حُرُما، ولا يغْزلون الوبر، ولا الشّعر، ولا ينسجونه، ولا يأكلون شيئا من نبات الحرم، فأنزل الله قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }[vii]، وكانوا لا يقفون بعرفة كما يقف الناس، ولا يفيضون منه فأنزل الله قوله تعالى:{ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[viii].

كما أدخل العرب أصنام قومِ نوح، فعبدوا ودًّا وسُوَاع ويَغُوث ويعُوق ونَسْرا، وهي أسماء لرجال صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبَد حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبِدَت[ix]، وقد أدخلها العرب بعد أن انتشرت عبادة الأصنام بعد عهد عمرو بن لحي، فعبد بنو هذيل بن مدركة "سواعا"، وعبدت قضاعة من دومة الجندل "ودًّا"، وعبد أنعم من طيٍّ وأهل جُرش من مَذحج "يغوث"، وعبد قوم خيوان من همذان "يعوق"، وعبد ذو الكلاع من حمير "نسرا" بأرض اليمن، كما اتخذت قريش صنمين على موضع زمزم تنحر عندهما الذبائح، وهما إساف ونائلة، كما اتّخذت مع الكعبة بيوتا تعظمها كعظمة الكعبة بها أصنام ولها سدنة وحُجّاب، وتطوف بها كطوافها على الكعبة مثل: العُزّى وكانت لقريش وكنانة، واللاّت كانت لثقيف بالطائف، ومناة التي كانت للأوس والخزرج وأهل يثرب، ورئام كانت لحمير من أهل اليمن[x].

ويشير بعض المؤرخين إلى انتشار المجوسية في بلاد العرب، ويقول ابن قتيبة أن قبائل تميم عرفت المجوسية في زرارة بن عُدس وأبنائه، كما كانت شائعة بين قبائل البحرين عامة على مقْربة من فارس[xi].

- **الديانات السماوية**

ظهرت الديانات السماوية في مرحلة ما قبل الاسلام ببلاد العرب، ومنها اليهودية والنصرانية، حيث انتشرت اليهودية في اليمن في ظلّ حكم المملكة الحمْيرية في القرنين 4 و5 للميلاد، وكذلك في وادي القُرى وخيْبر وتيْماء وفدكْ ويثْرب، ويعود أصْل يهود شبه الجزيرة العربية إلى بقايا اليهود الذين هاجروا من فلسطين في مرحلة اجْتياح الرّومان عليها في القرن الميلادي الأول، وقد وجد اليهود في بلاد العرب الأمن والاستقرار وفرص العمل، فمارسوا التجارة والصناعة، واشتهروا بصناعة الحليّ والأسلحة والحديد، ويبدو أنّ اليهودية دخلت إلى بلاد العرب عبر رافدين؛ الأول هو الدعوة والتهوّد والثاني التجارة والهجرة، غير أنّ اليهود مع مرور الزمن تخلّوا عن أسلوب الدعوة، واعتبروا أنفسهم شعب الله المختار وأنّ الشعوب الأخرى غير جديرة بالتهوّد[xii].

أما النّصرانية التي ظهرت بفلسطين في القرن الأول للميلاد وتسيّدت العالم منذ عهد الامبراطور الروماني قسطنطين الأول(306م–337م) فقد تسرّبت إلى شبه الجزيرة العربية خلال تلك الفترة، وذلك بحكم الجوار حيث أثّرت المراكز النصرانية الثلاث (سوريا–العراق–الحبشة) في عملية الانتشار الذي كان عبر ثلاث روافد: التجارة، التبشير، الرقيق الأبيض. ووُجدت النّصرانية في دومة الجندل، ووادي القرى، ويثرب، ومكة، ونجْد، واليمامة، والبحرين، وظفار، ونجران باليمن.

- **الحنيفية أو العودة إلى التوحيد:**

وهي نزعة توحيديّة عربيّة خالصة، وكان ظهورها عن طريق طائفة من المتديّنين عبّرت عن رفضها للواقع الديني المتفشّي في بلاد العرب آنذاك، فكان ظهورها ثورة على الوثنيّة من جهة، وعلى الديانات السماوية المحرّفة من جهة أخرى، وقد سمّوا هؤلاء بالحكماء والحنفاء نسبة إلى دين إبراهيم الحنيف، ومنهم من حفظ التوراة والانجيل وفهمهما، وكانوا يتأمّلون في الكون، ويجتنّبون الخمر والأعمال المنكرة، ونصحوا الناس بالابْتعاد عن الأصنام وعبادة الله وحْده، وقد كان منهم في مكّة قبيل الإسلام أربع وهم: ورقة بن نوفل، عثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل، فكأنّ بظهورها تمهيدا لظهور الإسلام الذي لم يتوقّف عند إصلاح الواقع الديني كما أرادته الحنيفية، وإنّما تعدّاه ليكون بحقّ ثورة على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وليس في بلاد العرب فحسْب بل في العالم بأسره، إذ كان هدفه إخراج

الإنسان في أيّ مكان من عبودية العباد إلى عبودية الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة [xiii].

---

[i] محمود عرفة محمود: العرب قبل الإسلام، ص168.
[ii] قرآن كريم، سورة الأعراف، آية 65.
[iii] قرآن كريم، سورة الأعراف، آية 73.
[iv] ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1410،3هـ/ 1990م، ص95.
[v] محمد بن إسحاق(القرن3هـ): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ط2، 1994، ص153.
[vi] سورة يوسف ، آية 106.
[vii] سورة الأعراف : آية 31-32.
[viii] سورة البقرة :آية 99
[ix] محمد بن إسحاق(القرن3هـ): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ص163.
[x] ابن هشام: السيرة النبوية، ج1/ص103.
[xi] عباس محمود العقاد: مطلع النور، ص37.
[xii] محمد سهيل قطوش: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص264.
[xiii] محمد سهيل قطوش: العرب قبل الإسلام،ص280.